الأقوال الرصينة في وثيقة المدينة

أ.د.عبدالرزاق الصاعدي

نقل ابن هشام المعافري (ت 213هـ) في كتاب السيرة عن محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت 151هـ) في المغازي -وتسمّى سيرة ابن إسحاق- وثيقةً تاريخية عُرفت فيما بعد بـ (وثيقة المدينة) أو (صحيفة المدينة) أو (الوثيقة النبوية)، وهي كتابٌ أمر به نبينا -صلى الله عليه وسلم- ليصنع حِلفًا اجتماعيًّا مترابطًا بين المهاجِرين والأنصار، وليكون موادعةً ومعاهدةً بين المسلمين واليهود في المدينة في ذلك الوقت. وجاءت الوثيقة من طرق مختلفة ونقلتها مصادر عديدة، أقدمها كتاب المغازي أو السيرة لابن إسحاق، وهي طويلة، فلن أنقل نصها في هذه العجالة، وحسب القارئ الكريم أن يرجع إليها في مصادرها ومنها السيرة لابن هشام (ص 1/ 502 تحقيق مصطفى السقا، و106 تحقيق طه عبدالرؤوف أسعد) أو أي مصدر نقلها، مما سأشير إليه فيما يأتي.

ورأيت مَنْ يشكّك في هذه الوثيقة التاريخية ويشكّك في مصادرها؛ لأنها تخالف هواه وتنقض عُرى ما بناه، والهوى آفة البحث العلمي وعدوّ الأمانة والموضوعية، وما أكثر أصحاب الأهواء المتطفّلين على البحث العلمي، وما أقلّ بركتهم، يدّعون الحياد والموضوعية وهم أبعد الناس من ذلك. وربما احتجّ المشكّك بأن الألباني ضعّف الوثيقة بناء على اجتهاده -رحمه الله- في نقد إسنادها؛ وكأنّه لا يعلم أن كثيرًا مما جاء في السيرة وتاريخ النبوّة والخلفاء الراشدين لا إسناد له أو في إسناده مواضع نقد، ولو كان هذا منهجه في مرويات التاريخ لقلنا إنه أمين شديد التحرّز ولكننا نراه يقبل الروايات التاريخية المنسوبة للهمداني، الذي وصفه الشيخ حمد الجاسر بأنه متعصب لبلده وقومه، واتهمه أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري بالكذب، ولو طبّقنا منهج المحدّثين في السند والجرح والتعديل على هذا الكتاب بل على المرويات التاريخية الواردة في كتب السيرة وكتب التاريخ والأنساب بعامّة لـرُدّ أكثر ما فيها، فما الذي يصحّ مما في كتاب الإكليل المنسوب للهمداني لو عرضت نصوصه ومروياته على منهج المحدّثين؟ لن يصح منه شيء ذو قيمة وحتى عنوانه لا يصح، فهو مختصر الإكليل لمحمد بن نشوان الحميري، طبعه ناشره باسم الإكليل للهمداني، وحقه أن يكون مختصر الإكليل لمحمد بن نشوان الحميري (ت 610هـ) وما أحراه أن يسميه: (بَيْض الإجفيل في اختصار الإكليل)، على قياس كتابه (ضياء الحلوم في اختصار شمس العلوم)، وهو مختصر لشمس العلوم، كتاب والدِه نشوان بن سعيد الحميري.

وهل يُدرك المشكّك في الوثيقة المقلّل من شأن رواتها ومصادرها أنّ السيرة إنما دُوّنت بما هي عليه اليوم من تلك المصادر؟ ثم ألا يعلم أنّ منهج المحدّثين في التشدّد في معايير الرواية والسند إنما يلزم في العقائد والحلال والحرام من الأحكام دون الأخبار والقَصص والفضائل التي يقع فيها التساهل؟ مع ملاحظة التفريق بين ما يرد في أخبار السيرة مما يتعلّق به حكم شرعي أو يتضمن أحكاما فقهية، وهي مواضع متفرقة من الوثيقة وردت في كتاب الحديث الستة وصحّ سندها.

وفي أبواب التساهل قال الإمام أحمد بن حنبل: «إذا روينا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الحلال والحرام والسنن والأحكام، تشدّدنا في الأسانيد، وإذا روينا عنه في فضائل الأعمال وما لا يضع حكما ولا يرفعه، تساهلنا في الأسانيد». (نقله الخطيب في «الكفاية» ص134).

وقال ابن رجب في شرح علل الترمذي: «وقد ذهب عامّة أهل العلم إلى التساهل والتخفيف في مرويات السيرة، والقصص، وأقوال الصحابة والتابعين، التي لا ينبني عليها عقيدة أو شريعة». (شرح علل الترمذي 1/ 372).

وقال ابن عبدالبرّ: «وأهل العلم ما زالوا يُسامحون أنفسهم في رواية الرغائب والفضائل عن كلِّ أحد، وإنما كانوا يتشدَّدون في أحاديث الأحكام» (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 1/ 127).

وقال السخاوي: «وهذا التّساهل والتّشديد منقولٌ عن ابن مَهْدِيّ عبدالرّحمن، وغير واحد من الأئمّة؛ كأحمد بن حنبل، وابن مَعِين، وابن المبارك، والسُّفْيَانَيْن، بحيث عقدَ أبو أحمد بن عَدِيّ في مُقدِّمة كامِلِه، والخطيب في كفايتِه، لذلك بابًا. وقال ابن عبدالبَرِّ: أحاديثُ الفَضائل لا يُحتاجُ فيها إلى مَنْ يُحتجُّ به». (فتح المغيث بشرح ألفية الحديث 1/ 349).

وقال همام عبد الرحيم: إنّها «معاناة يشعر بها دارس السيرة النبوية ومُدرّسها عندما يرواح بين منهجين: منهج المؤرّخين ورُواة السير، ومنهج المحدّثين، فقد عُرف عن المؤرخين وأصحاب السير التساهل في الرواية.... بينما اتّبع المحدِّثون منهج النقد الذي يُميّز الرِّوايات الصحيحة من غيرها» (ينظر: صحيح السيرة النبوية للعلي ص 7).

ومن هنا كان ابن شهاب الزهري وابن إسحاق وابن هشام حجة في السيرة النبويّة عند أهل العلم، مع أنهم لم يلتزموا الإسناد في كل أخبار السيرة، بل كان همُّهم جمعَ أطراف الأخبار في الحَدَث الواحد وسوقها في كلّيّاتها وجزئياتها مساقًا واحدًا، فجاءت قصّة متكاملة شاملة، وكتب الله لها القبول والانتشار.

ونعود إلى الوثيقة، فأقول: إنها ثابتة بالرواية والتأصيل عن العلماء الثقات، ومن أبرز مصادرها:

1- المغازي أو سيرة ابن إسحاق المطّلبي (ت 151هـ).

2- سيرة ابن هشام المعافري (ت 213هـ).

3- كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ).

4- كتاب الأموال لحُميد بن زنجويه (ت 247هـ).

لقطة للمدينة المنورة عمرها أكثر من قرن، التقطت عام 1913م 1331 هـ (دارة الملك عبدالعزيز).

5- السنن الكبرى للبيهقي (ت 458هـ).

6- الروض الأنف للسهيلي (ت 581هـ).

7- الإملاء المختصر في شرح غريب السير، لابن أبي الركب الخشنى الجيّاني (ت 604هـ).

8- الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيميّة (ت 728هـ).

9- نهاية الأرب، للنويري (ت733هـ).

10- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس اليعمري الربعي (ت 734هـ).

11- المهذّب في اختصار السنن الكبرى، للذهبي (ت 748هـ).

12- البداية والنهاية، لابن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ).

13- المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، لجمال الدين بن حديدة، محمد بن علي الأنصاري (ت 783هـ).

14- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لابن الملقّن الشافعي (ت 804هـ)

15- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر العسقلاني (ت 852هـ).

16- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، ليحيى بن أبى بكر العامري الحرضي (ت 893هـ).

17- السيل الجرّار، للشوكاني (ت 1250هـ).

18- صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم بن محمد بن حسين العلي الشبلي (ت 1425هـ).

19- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري(ت1427هـ).

وممن ناقش صحة الوثيقة صالح العلي في كتابه (تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص 4 وما بعدها) وأكرم ضياء العُمري في كتابيه (المجتمع المدني في عهد النبوة ص 107 وما بعدها)، و(السيرة النبوية الصحيحة 1/ 272 وما بعدها)، وإبراهيم بن محمد العلي الشبلي في كتابه (صحيح السيرة النبوية ص 140 وما بعدها). وإياد الطباع في بحثه (صحيفة المدينة المنورة النص والتوثيق: دراسة في الحديث النبوي) ولعل أحسن من تناولها أكرم ضياء العمري الذي فاز بجائزة الملك فيصل، وانتهى إلى إثبات الوثيقة في الجملة وقبولها، وقال في دراسته: «الراجح أنّ الوثيقة في الأصل وثيقتان، ثم جمع المؤرخون بينهما، إحداهما تتناول موادعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لليهود، والثانية توضّح التزامات المسلمين من مهاجرين وأنصار وحقوقهم وواجباتهم». وقال: «يترجّح عندي أن وثيقة موادعة اليهود كتبت قبل موقعة بدر الكبرى، أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فكتبت بعد بدر، فقد صرّحت المصادر بأنّ موادعة اليهود تمّت أوّل قدوم للرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة». (السيرة النبوية الصحيحة 1/ 225، 276)

ولكي لا يطول الحديث فإني أكتفي بخلاصة ما انتهى إليه الباحثون صالح العلي وأكرم العُمري وإبراهيم العلي الشبلي وإياد الطبّاع، في قبولها وتوثيقها، وأختصرها في النقاط الآتية:

1- أنها وردت من طرق كثيرة، تتضافر في إكسابها القوة، ومن رواتها ابن شهاب الزهري (ت 125هـ)، وهو عَلَم من روّاد كُتّاب السيرة، يعدّ من أوثق أهل العلم والرواية (صحيفة المدينة لإياد الطبّاع 154)، ورويت عن ستّة من الصحابة وخمسة من التابعين وتابعي التابعين.

2- أن المحالفة بين المهاجرين والأنصار ثابتة، وكتاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وكذلك موادعة اليهود، وكتاب الرسول في ذلك.

3- وأنّ نصوصًا ومقتطفات من الوثيقة تغطّي عددًا من بنودها وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة وبعضها أورده البخاري أو مسلم وورد بعضها في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجة والترمذي واحتج بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم الفقهية.

4- وأنّ الوثيقة تصلح أساسًا للدراسة التاريخية ومنها الوقائع وأسماء القبائل والرجال.

5- وأن أسلوب الوثيقة يدلّ على أصالتها، وينم على مألوف أساليب العصر المدني، وكذلك استخدام الجمل نفسها مع أساليب كتب الرسول -صلى الله عليه وسلم- الأخرى يعطيها قوة ويكسبها الثقة، ويمكن القول: إنّها وثيقة أصلية غير مزوّرة، كما يقول أكرم العُمري. (السيرة النبوية الصحيحة 1/ 276)

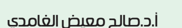
6- أن التشكيك بعد ذلك يعد مجازفة كبرى، وتسرّعا في إصدار الأحكام، ومجافاة للأسلوب العلمي فضلا عن مخالفة الواقع (صحيفة المدينة لإياد الطباع 156).

وأضيف إلى ما سبق أن هذه الوثيقة مقبولة عند عامّة علماء الأمّة ومؤرّخيها المتقدّمين والمتأخّرين، وبها اقتدى أكثر من 1200 عالم و27 مكوّنًا إسلاميًّا، وشاركهم أكثر من 4500 مفكر إسلامي، في مؤتمر وثيقة مكة المكرمة الذي عقد بمكة في 22- 24 رمضان 1440هـ، برعاية كريمة من الملك سلمان بن عبدالعزيز،-حفظه الله-، وأعدّ العلماء (وثيقة مكة المكرمة)، وجاء فيها ما نصّه: إنّ وثيقة مكة المكرّمة «استلهمت مبادئها وغاياتها من الوثيقة التاريخية التي أمضاها نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- مع التنوع الديني في المدينة المنورة قبل 1400 عام، وهي التي أسست للتعايش في المجتمع المدني بعد أن أصبح المسلمون مكوّنًا جديدًا فيه» وعدّوها الوثيقة الثانية من هذا النوع بعد وثيقة المدينة المنورة.

وينبغي لمن يبحث في التاريخ والأنساب والوثائق أن يلتزم الأمانة ويتحرّى الموضوعية والإنصاف فيما يكتب، وألّا يسوقه الهوى إلى الطعن في شيء من أصول تاريخنا أو التشكيك في مصادر مهمة ككتاب السيرة لابن هشام، الذي هذّب سيرة ابن إسحاق، ويعدّ من أوثق المصادر التي تناولت سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام وتاريخ مدينته وصحابته، وذكرت القبائل التي ناصرته.

السيرة الذاتية ذات الحدث الرئيس الواحد

سوانح سير ذاتية



أ.د.صالح معيض الغامدي

في أحيان ليست بالقليلة تشكل حادثةٌ مهمة واحدة تحدث لشخص ما مرتكزا رئيسا لسرد سيرته الذاتية الكاملة أو على الأقل لمعظمها. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه السيرة الذاتية ذات الحدث الرئيس الواحد. وفي تراثنا العربي الإسلامي نماذج كثيرة من هذه السيرة المكثفة التي تأتي في أشكال مختلفة، ولعل من أقدمها قصص إسلام كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، إذ تشكل كل قصة يسردها كاتبها سيرة ذاتية ذات حدث رئيس واحد، وهو اعتناق الإسلام أو تغيير العقيدة. وعادة ما يسرد هؤلاء الأشخاص طرفا من حياتهم قبل الإسلام وقصة إسلامهم والتغييرات التي تحدث في حياتهم الجديدة، وتكون تجربة اعتناق الإسلام هي التجربة الحياتية المركزية التي تُستدعى فيها وحولها التجارب الحياتية الكاملة. ويمكن الاستشهاد هنا بنموذج واحد وهو قصة إسلام الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه في الحديث المشهور الذي رواه ابن عباس عنه.

ومن النماذج الجميلة لهذا النوع من السير سيرة أم المؤمنين عائشة التي ترويها في حادثة الإفك، فلقد روت هذه الحادثة في حديث طويل سرد بضمير المتكلم وصفت فيه أحداث القصة كما حدثت لها، طلبا للدفاع عن نفسها من الشكوك الباطلة التي أثارها البعض، مشيرة فيه إلى بعض جوانب سيرتها قبل الحادثة وأثنائها وبعدها، وبخاصة عندما نزل القرآن الكريم مبرئا لها.

ومن النماذج الأخرى لهذا النوع من السير الذاتية سيرة الصحابي الجليل كعب بن مالك، أو ما يعرف بحديث كعب بن مالك، الذي روى فيه كعب قصة تخلفه عن المسير مع الرسول وصحابته في غزوة تبوك رغم اعترافه بقدرته الجسدية والمادية على ذلك، وانتفاء الأسباب التي تعيقه عن السفر معهم، وقد قاطعه الناس بسبب ذلك، لكنه صبر حتى جاء القرآن معلنا توبته.

ولعلنا نختم هذه النماذج بالإشارة إلى سيرة أبي حيان التوحيدي ذات الحدث الرئيس، التي رواها في الرسالة التي كتبها ردا على رسالة القاضي أبو سهل على بن محمد الذي أرسل له يعذله فيها على حادثة إحراق كتبه. فقد أورد التوحيدي في هذه الرسالة الذاتية كثيرا من المبررات المرتبطة ليس بهذه الحادثة فقط، بل بأحدث حياته الماضية كلها، فهذه الأحداث الحياتية الصعبة هي التي دفعت التوحيدي إلى القيام بهذا العمل الفضيع، ولو أن هذا الفعل ربما كان مجرد فعل احتجاجي على طبيعة معيشته القاسية وعلى عدم حمده لكثير من الناس الذين عاش معهم وبينهم، بل وعلى كثير من الأعمال النفاقية التي أجبر (أو أطمع) على القيام بها وهو يكرهها. فهو يعلم ونحن نعلم أن كتبه كانت قد انتشرت وذاعت قبل عام 400 هـ وهو العام الذي كتب فيه هذه الرسالة، وفقا لما ذكره ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء) حيث وردت هذه الرسالة.

ويمكن تحديد أبرز سمات هذا النوع من السير الذاتية على النحو الآتي:

1- الحدث الرئيس الواحد: فكل هذه النصوص السيرذاتية تتمحور حول حادثة رئيسة واحدة يكون من شأنها إحداث تغيير كبير في حياة كاتبها، وقد يكون هذا التغيير إيجابيا كما رأينا في أغلب النصوص المشارإليها، وقد يكون سلبيا كما هو الحال فيسيرةالتوحيدي.

2- توظيف ضمير المتكلم: يوظف ضمير المتكلم في كل هذه النصوص كلها سواء كتبها أصحابها أم رووها مشافهة وكتبت لاحقا. وضميرالمتكلم كما نعلم من أهم سمات النص السيرذاتي.

3- القصر والتكثيف: تميزت هذه النصوص السيرذاتية بالقصر النسبي، ولكنها جاءت في الواقع مكثفة وممتدة زمانيا بحيث تشمل إشارات عديدة إلى حياة مؤلفيها قبل الحادثة الحياتية الرئيسة وأثنائها وبعدها.

4 - قوة العاطفة الجياشة في السرد: تتميز هذه النصوص الذاتية بقوة العاطفة وصدق المشاعر وبراعة الأسلوب، ولذا بدت درجة تأثيرها عالية في القراء كما نعتقد.

5- شهرة الشخصيات التي كتبت هذا النوع: فأبطال هذه السير من الشخصيات المشهورة في مجالات مختلفة من مجالات الحياة.

6- الدوافع العلاجية، أو التحررية كانت هي الدوافع الرئيسة لرواية هذه السير او كتابتها، بالإضافة طبعا إلى الدوافع التقليدية الأخرى التي لا مجال للتوسع فيها في هذا المقال.

7- رويت أغلب هذه النصوص السيرذاتية أو كتبت ربما من باب التحدث بنعمة الله، والنعمة هنا ينبغي ألا تفهم في سياق إيجابية الأحداث الرئيسة في حياة أصحابها، بل في سياق المآلات التي انتهت إليها هذه الأحداث القاسية التي يروونها في حياتهم.